

٣ - الإشارة الى بذرة الرمز الاساسي الذي سيوقع احداث الرواية . فالكنز الذي تبحث عنه عائلة المتشائل يأخذ حجبا مختلفا مع زوجته باقيه وابنه ولاء ، ليصبح اشياء الارض وقد استنحلت سلحا وقتلا .

نتابع في الكتاب الثاني « باقية » مغامرات سعيد المتشائل . لكن هذا الكتاب أقل انسيابا من الكتاب الاول ، لانه يتمحور حول مسألة واحدة - الزواج من باقية الطنطورية والبحث عن كثرها الضائع - فتأتي جميع العناصر التفصيلية التي يحسن حبيبي صياغتها بحس نادر يمزج الفكاهة بالمأساة لترعد هذا الجانب الاساسي . « في الربيع التقيت الطنطورية ، وفي الخريف سمعت ابنها ، وحياتي بينهما خلصة من الزمان » . ثم تأتي العناصر الثقافية - كنديدو اخوان الصفاء ، ... لترفسد العمق التاريخي للاحداث ، ولتتعرس المستوى المباشر بامتداد تاريخي . نبدأ بالبحر والمصيد حيث تم اللقاء بباقية ، لنعتقل أكثر اللحظات مأساوية في حياة حرب « اسرائيل » : « فكلما تكاثرت ليالي جزيران على العرب ، تكاثرت صيادو السمك الهواة منهم ، فقتيل يهريون من هموم أزواجهم » . لقاء المتشائل بالطنطورية ومن ثم زواجهما ، يفجر لحظة السر - الكنز في الرواية على شكل من الممارسة السياسية . فبعد محاولات سعيد الفاشلة للعثور على كنز زوجته وتركيز المؤلف الشديد على موضوعه الكنز ، حين يقذف بنا الى ما بعد ١٩٦٧ مباشرة لثروي قصة ثريا عبد القادر مقبول التي عادت الى بيتها ووجدت كنزا مطمورا سرقتة منها الحكومة لقاء وصل . ويصل التوتر ذروته حين يتمرد ولاء ويكتشف الكنز الذي هو عبارة عن بنادق وينضم الى الفدائيين . ويطوق في المغارة . فيذهب اليه والداه لاقتناعه بتسليم نفسه . هنا يقيم المؤلف لأول مرة في روايته هذه ، حوارا مأساويا بالغ التوتر والدلالات ، ينقل هموم المواطن البسيط واحساسه الثوري الحاد . ثم تلحق به أمه . هنا تفاجأ بخاتمة تشبه خاتمة الحكاية الشعبية . إذ يتمكن الولد وأمّه من الهرب عبر البحر . وينضمان الى المقاومة .

الكتاب الثالث - يعاد الثانية ، هو أكثر اجزاء هذه الثلاثية طرافة ودلالات . فهو الدائرة الثالثة التي تستوعب الدائرتين الاولتين ، لتقوم بالغاء الحدود بين الخيال والواقع ، بين الجنون وعدمه ،

الشخصية الرئيسية . فنعرف ان سعيدا ينتسب الى مسبية قبرصية من حلب ، من سبانيا تيمورلنك ، سبأها جده الاكبر أبجر بن أبجر . ويفسر كنية العائلة : المتشائل على انها ادغام للكلمتين المتفائل والمتشائم . يبدأ الكتاب بأسلوبية تشابه رواية السير البطولية ، لنكتشف بعد قليل ان البطل ليس بطلا ، بل هو انسان عادي يقوده حس التكيف . هذا الحس هو الذي يحبل البعد الشعبي الخاص في الرواية بأسرها . يحاول المتشائل بعد هجرته الاجبارية من فلسطين العودة اليها . فتبدأ رواية المأساة الجماعية في ظل ايقاع فكاهي : « فأنا أول انسان على ما أعهد ، أنقذه حمار محرن لا يسابق ربحا » . يذهب بحثا عن سفنارشيك المسؤول الصهيوني الذي أوصاه والده بالبحث عنه . ثم يتقاد الى عكا لينام في المسجد . هنا نكتشف مأساة العائدين - المبعدين . ونستمع الى قصص القرى العربية التي دمرت . يأخذ التداعي مجراه الاساسي باعتباره سياتقا ، فيتذكر سعيد قصة حبه ليعاد عندما كان طالبا ، ثم يخرج الى شوارع عكا ، فيتذكر محاولته الفاشلة للذهاب الى بيروت مع اصدقائه لجلب الاسلحة عام ١٩٢٩ . ثم يروي اسرار عائلته واصرارها على البحث عن الكنز . في دياميس عكا، يعود الحس الشعبي الى الارتفاع ، فنعيش في أجواء حكاية شعبية من حكايات الخوارق تروي لقاءه برجل الفضاء الذي يلقي عليه درسا في النضال . غير ان ضرورات التكيف تفرض عليه تعامله مع العدو في اتحاد عمال فلسطين . ويسوقنا تطور الاحداث الى مجيء يعاد الى منزله في حيفا بحثا عن والدها الذي سلمه المتشائل او والده وهو يضع على رأسه كيسا من الخيش حتى لا يعرف . فنبأتي البوليس ويطردها وراء الحدود . يريد هذا التلخيص السريع والمختصر للكتاب الاول التأكيد على ثلاث مسائل :

١ - تقديم الشخصية الشعبية بوصفها تمتلك احساسا هائلا بالتكيف ، هذا النوع من التكيف التعامل مع المحتل ، سوف يكشف تناقضاته الداخلية واستحالاته ، ليحل مكانه تكيف آخر من طبيعة متاومة .

٢ - التداعي المكاني الذي يفرض منطقته على زمن الرواية . فالامكنة هي مستودع الذاكرة الجماعية التي تعيد تاريخ نفسها انطلاقا من هنا .